

قصة يونس عليه السلام

قال الله تعالى في سورة يونس: {قُلُوبًا كَانَتْ قَرِيَةً آمَنَتْ فَنَفَعَهَا إِيمَانُهَا إِلَّا قَوْمَ يُونُسَ لَمَّا آمَنُوا كَشَفْنَا عَنْهُمْ عَذَابَ

الْخِزْيِ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَمَتَّعْنَاهُمْ إِلَىٰ حِينٍ}

وقال تعالى في سورة الأنبياء: {وَذَا النُّونِ إِذ ذَهَبَ مُغَاضِبًا فَظَنَّ أَنْ لَنْ نَقْدِرَ عَلَيْهِ فَنَادَىٰ فِي الظُّلُمَاتِ أَنْ لَا إِلَهَ إِلَّا

أَنْتَ سُبْحَانَكَ إِنِّي كُنْتُ مِنَ الظَّالِمِينَ * فَاسْتَجَبْنَا لَهُ وَنَجَّيْنَاهُ مِنَ الغَمِّ وَكَذَلِكَ نُنْجِي الْمُؤْمِنِينَ}

وقال تعالى في سورة الصافات: {وَإِنَّ يُونُسَ لَمِنَ الْمُرْسَلِينَ * إِذْ أَبَقَ إِلَى الْفُلْكِ الْمَشْحُونِ * فَسَاهَمَ فَكَانَ مِنَ

الْمُدْحَضِينَ * فَالْتَقَمَهُ الْحُوتُ وَهُوَ مُلِيمٌ * فَلَوْلَا أَنَّهُ كَانَ مِنَ الْمُسَبِّحِينَ * لَلَبِثَ فِي بَطْنِهِ إِلَى يَوْمِ يُبْعَثُونَ * فَبَدَّنَاهُ

بِالْعَرَاءِ وَهُوَ سَقِيمٌ * وَأَنْبَتْنَا عَلَيْهِ شَجَرَةً مِنْ يَقْطِينٍ * وَأَرْسَلْنَاهُ إِلَىٰ مِائَةِ أَلْفٍ أَوْ يَزِيدُونَ * فَأَمَنُوا فَمَتَّعْنَاهُمْ إِلَىٰ

حِينٍ}

قال أهل التفسير: بعث الله يونس عليه السلام إلى أهل نينوى من أرض الموصل، فدعاهم إلى الله عز وجل فكذبوه

وتمردوا على كفرهم وعنادهم، فلما طال ذلك عليه من أمرهم، خرج من بين أظهرهم ووعدهم حلول العذاب بهم بعد

ثلاث.

فلما خرج من بين ظهرانيهم، وتحققوا نزول العذاب بهم، قذف الله في قلوبهم التوبة والإجابة، وندموا على ما كان

منهم إلى نبيهم، فلبسوا المسوح وفرقوا بين كل بهيمة وولدها، ثم عجوا إلى الله عز وجل وصرخوا وتضرعوا إليه،

وتمسكوا لديه، وبكى الرجال والنساء، والبنون والبنات والأمهات، وجأرت الأنعام والدواب والمواشي، فرغت الإبل

وفصلانها، وخارت البقر وأولادها، وثغت الغنم وحملاتها، وكانت ساعة عظيمة هائلة، فكشف الله العظيم بحوله

وقوته ورافته ورحمته عنهم العذاب، الذي كان قد اتصل بهم بسببه، ودار على رؤوسهم كقطع الليل المظلم.

ولهذا قال تعالى: {قُلُوبًا كَانَتْ قَرِيَةً آمَنَتْ فَنَفَعَهَا إِيمَانُهَا} أي: هلاً وجدت فيما سلف من القرون قرية آمنت بكمالها،

فدل على أنه لم يقع ذلك بل كما قال تعالى: {وَمَا أَرْسَلْنَا فِي قَرِيَةٍ مِنْ نَذِيرٍ إِلَّا قَالَ مُتْرَفُوهَا إِنَّا بِمَا أُرْسِلْتُمْ بِهِ كَافِرُونَ}

وقوله: {إِلَّا قَوْمَ يُونُسَ لَمَّا آمَنُوا كَشَفْنَا عَنْهُمْ عَذَابَ الْخِزْيِ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَمَتَّعْنَاهُمْ إِلَىٰ حِينٍ} أي: آمنوا بكمالهم.

وقد اختلف المفسرون هل ينفعهم هذا الإيمان في الدار الآخرة، فينقذهم من العذاب الآخروي، كما أنقذهم من العذاب

الدنيوي؟ على قولين؛ الأظهر من السياق: نعم والله أعلم. كما قال تعالى: {لَمَّا آمَنُوا} وقال تعالى: {وَأَرْسَلْنَاهُ إِلَىٰ مِائَةِ

أَلْفٍ أَوْ يَزِيدُونَ * فَأَمَنُوا فَمَتَّعْنَاهُمْ إِلَىٰ حِينٍ} وهذا المتاع إلى حين لا ينفي أن يكون معه غيره من رفع العذاب

الآخروي، والله أعلم.

وقد كانوا مائة ألف لا محالة، واختلفوا في

فلما ذهب يونس عليه السلام مغاضباً بسبب قومه، ركب سفينة في البحر، فلجت بهم واضطربت وماجت بهم، وثقلت

بما فيها وكادوا يغرقون، على ما ذكره المفسرون.

قالوا: فاشتوروا فيما بينهم على أن يقتربوا، فمن وقعت القرعة عليه القرعة ألقوه من السفينة ليتحفظوا منه.

فلما اقتربوا وقعت القرعة على نبي الله يونس، فلم يسمحوا به

فأعادوها ثانية فوقعت عليه أيضاً، فشمّر ليخلع ثيابه ويلقى بنفسه فأبوا عليه ذلك.

ثم أعادوا القرعة الثالثة فوقعت عليه أيضاً، لما يريد الله به من الأمر العظيم.

قال الله تعالى: {وَإِنَّ يُونُسَ لَمِنَ الْمُرْسَلِينَ * إِذْ أَبَقَ إِلَى الْفُلْكِ الْمَشْحُونِ * فَسَاهَمَ فَكَانَ مِنَ الْمُدْحَضِينَ * فَالْتَقَمَهُ

الْحُوتُ وَهُوَ مُلِيمٌ}.

وذلك أنه لما وقعت عليه القرعة ألقى في البحر، وبعث الله عز وجل حوتاً عظيماً من البحر الأخضر فالتقمه، وأمره الله تعالى أن لا يأكل له لحماً، ولا يهشم له عظماً، فليس لك برزق.

فأخذه فطاف به البحار كلها، وقيل: إنه ابتلع ذلك الحوت حوت آخر أكبر منه. قالوا: ولما استقر في جوف الحوت حسب أنه قد مات، فحرك جوارحه فتحركت فإذا هو حي، فخر الله ساجداً وقال: يا رب اتخذت لك مسجداً لم يعبدك أحد في مثله.

وقد اختلفوا في مقدار لبثه في بطنه.

فقال مجالد، عن الشعبي: التقمه ضحى ولفظه عشية.

وقال قتادة: مكث فيه ثلاثاً.

وقال جعفر الصادق: سبعة أيام

وقال سعيد بن أبي الحسن، وأبو مالك: مكث في جوفه أربعين يوماً، والله أعلم كم مقدار ما لبث فيه.

والمقصود أنه لما جعل الحوت يطوف به في قرار البحار اللجية، ويقتحم به لجاج الموج فسمع تسبيح الحيتان للرحمن، وحتى سمع تسبيح الحصى لفالق الحب والنوى، ورب السموات السبع والأرضين السبع، وما بينها وما تحت الثرى.

فعند ذلك وهناك قال ما قال: كما أخبر عنه ذو العزة والجلال الذي يعلم السر والنجوى، ويكشف الضر والبلوى، سامع الأصوات وإن ضعفت، وعالم الخفيات وإن دقت، ومجيب الدعوات وإن عظمت، حيث قال في كتابه المبين المنزل على رسوله الأمين، وهو أصدق القائلين ورب العالمين وإله المرسلين:

{وَذَا النُّونِ إِذْ ذَهَبَ مُغَاضِبًا فَظَنَّ أَنْ لَنْ نَقْدِرَ عَلَيْهِ فَنَادَى فِي الظُّلُمَاتِ أَنْ لَا إِلَهَ إِلَّا أَنْتَ سُبْحَانَكَ إِنِّي كُنْتُ مِنَ الظَّالِمِينَ * فَاسْتَجَبْنَا لَهُ وَنَجَّيْنَاهُ مِنَ الْغَمِّ وَكَذَلِكَ نُنْجِي الْمُؤْمِنِينَ}

{فَظَنَّ أَنْ لَنْ نَقْدِرَ عَلَيْهِ} أن نضيق. وقيل معناه: نقدر من التقدير وهي لغة مشهورة قدر وقدر كما قال الشاعر:

فلا عائدُ ذاك الزمانُ الذي مضى * تباركت ما يقدرُ يكنُ فلك الأمر.

{فَنَادَى فِي الظُّلُمَاتِ} قيل: ظلمة الحوت، وظلمة البحر، وظلمة الليل.

وقيل: ابتلع الحوت حوت آخر، فصار ظلمة الحوتين مع ظلمة البحر.

وقوله تعالى: {فَلَوْلَا أَنَّهُ كَانَ مِنَ الْمُسَبِّحِينَ * لَلَبِثَ فِي بَطْنِهِ إِلَى يَوْمِ يُبْعَثُونَ} قيل معناه: لولا أنه سبح الله هنالك، وقال ما قال من التهليل والتسبيح والاعتراف لله بالخضوع والتوبة إليه، والرجوع إليه للبت هنالك إلى يوم القيامة. ولبعث من جوف ذلك الحوت.

هذا معنى ما روي عن سعيد بن جبير في إحدى الروايتين عنه.

وقيل معناه: {فَلَوْلَا أَنَّهُ كَانَ} من قبل أخذ الحوت له {مِنَ الْمُسَبِّحِينَ} أي: المطيعين المصلين الذاكرين الله كثيراً.

كما روى عن ابن عباس أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال لي:

((يا غلام إني معلمك كلمات: احفظ الله يحفظك، احفظ الله تجده تجاهك، تعرّف إلى الله في الرخاء يعرفك في الشدة)).

عن عبد الله بن رافع مولى أم سلمة قالت: سمعت أبا هريرة يقول: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم:

((لما أراد الله حبس يونس في بطن الحوت، أوحى الله إلى الحوت أن خذه ولا تخدش لحماً ولا تكسر عظماً، فأخذه ثم

هوى به إلى مسكنه من البحر، فلما انتهى به إلى أسفل البحر سمع يونس حساً فقال في نفسه: ما هذا؟

فأوحى الله إليه وهو في بطن الحوت إن هذا تسبيح دواب البحر.

قال فسبح وهو في بطن الحوت، فسمعت الملائكة تسبيحه.

فقالوا: يا ربنا إنا نسمع صوتاً ضعيفاً بأرض غريبة.

قال: ذلك عبدي يونس عصاني فحبسته في بطن الحوت في البحر.
قالوا: العبد الصالح الذي كان يصعد إليك منه في كل يوم وليلة عمل صالح!
قال: نعم.

قال: فشفعوا له عند ذلك فأمر الحوت ففذفه في الساحل)).
حدثني أبو صخر أن يزيد الرقاشي حدثه، سمعت أنس بن مالك ولا أعلم إلا أن أنساً يرفع الحديث إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم:
(أن يونس النبي عليه السلام حين بدا له أن يدعو بهذه الكلمات وهو في بطن الحوت قال: اللهم لا إله إلا أنت سبحانك إني كنت من الظالمين.

فأقبلت الدعوة تحن بالعرش،
فقال: الملائكة: يا رب صوت ضعيف معروف من بلاد غريبة.
فقال: أما تعرفون ذلك؟
قالوا: يا رب ومن هو؟
قال: عبدي يونس.

قالوا: عبدك يونس الذي لم يزل يرفع له عملاً متقبلاً، ودعوة مجابة.
قالوا: يا ربنا أو لا ترحم ما كان يصنعه في الرخاء فتجيه من البلاء؟
قال: بلى، فأمر الحوت فطرحه في العراء)).
ورواه ابن جرير، عن يونس، عن ابن وهب به.
و روى عن أبي هريرة يقول: طرح بالعراء وانبت الله عليه اليقطينة.
قلنا: يا أبا هريرة وما اليقطينة؟
قال: شجرة الدباء.

قال أبو هريرة: وهباً الله له أروية وحشية تأكل من خشاش الأرض، أو قال: هشاش الأرض.
قال فتنفخ عليه فترويه من لبنها كل عشية وبكرة، حتى نبت.
وقد قال الله تعالى: {فَتَبَدَّنَا} أي: ألقيناه
{بِالْعَرَاءِ} وهو المكان القفر الذي ليس فيه شيء من الأشجار بل هو عار منها.
{وَهُوَ سَقِيمٌ} أي: ضعيف البدن.

قال ابن مسعود: كهينة الفرخ ليس عليه ريش.
وقال ابن عباس، والسدي، وابن زيد: كهينة الضبي حين يولد، وهو المنفرش ليس عليه شيء.
{وَأَنْبَتْنَا عَلَيْهِ شَجَرَةً مِنْ يَقْطِينٍ}
قال ابن مسعود، وابن عباس، وعكرمة، ومجاهد وغير واحد: هو القرع.

قال بعض العلماء في إنبات القرع عليه حكم جملة؛ منها: أن ورقه في غاية النعومة، وكثير وظليل، ولا يقربه ذباب، ويؤكل ثمره من أول طلوعه إلى آخره، نياً ومطبوخاً وبقشره وببزره أيضاً. وفيه نفع كثير، وتقوية للدماغ، وغير ذلك.

وقد ذكرنا كلام أبي هريرة في تسخير الله تعالى له تلك الأروية التي كانت ترضعه لبنها، وترعى في البرية وتأتيه بكرة وعشية، وهذا من رحمة الله به ونعمته عليه وإحسانه إليه ولهذا قال تعالى: **{فَاسْتَجِبْنَا لَهُ وَنَجَّيْنَاهُ مِنَ الْغَمِّ} أي:** الكرب والضيق الذي كان فيه.

{وَكَذَلِكَ نُنْجِي الْمُؤْمِنِينَ} أي: وهذا صنعنا بكل من دعانا واستجار بنا.

سمعت سعد بن مالك - وهو ابن أبي وقاص - يقول سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول:

((اسم الله الذي إذا دعي به أجاب، وإذا سئل به أعطى: دعوة يونس بن متى)).

قال: فقلت يا رسول الله: هي ليونس خاصة أم لجماعة المسلمين؟

قال: ((هي ليونس خاصة وللمؤمنين عامة إذا دعوا بها. ألم تسمع قول الله تعالى: **{فَنَادَى فِي الظُّلُمَاتِ أَنْ لَا إِلَهَ إِلَّا أَنَا أَنْتَ سُبْحَانَكَ إِنِّي كُنْتُ مِنَ الظَّالِمِينَ * فَاسْتَجَبْنَا لَهُ وَنَجَّيْنَاهُ مِنَ الْغَمِّ وَكَذَلِكَ نُنْجِي الْمُؤْمِنِينَ}** فهو شرط من الله لمن دعاه به)).

عن ابن أبي وقاص قال: مررت بعثمان بن عفان في المسجد فسلمت عليه، فمأ عينيه مني ثم لم يرد علي السلام، فأتيت عمر بن الخطاب،

فقلت: يا أمير المؤمنين هل حدث في السلام شيء؟

قال: لا، وما ذاك؟

قلت: لا، إلا أنني مررت بعثمان آنفاً في المسجد فسلمت عليه، فمأ عينيه مني ثم لم يرد علي السلام.

قال فأرسل عمر إلى عثمان فدعاه فقال: ما منعك أن لا تكون رددت على أخيك السلام؟

قال: ما فعلت.

قال سعد: قلت: بلى حتى حلف وحلفت.

قال ثم إن عثمان ذكر فقال: بلى، وأستغفر الله وأتوب إليه، إنك مررت بي آنفاً وأنا أحدث نفسي بكلمة سمعتها من رسول الله صلى الله عليه وسلم، لا والله ما ذكرتها قط إلا تغشى بصري وقلبي غشاوة.

قال سعد: فأنا أتبتك بها، إن رسول الله صلى الله عليه وسلم ذكر لنا أول دعوة، ثم جاء أعرابي فشغله حتى قام رسول الله صلى الله عليه وسلم فاتبعته، فلما أشفقت أن يسبقني إلى منزله ضربت بقدمي الأرض، فالتفت إلي رسول

الله صلى الله عليه وسلم فقال: ((من هذا أبو إسحاق؟))

قال: قلت: نعم يا رسول الله.

قال: ((فمه؟))

قلت: لا والله إلا أنك ذكرت لنا أول دعوة، ثم جاء هذا الأعرابي فشغلك.

قال: ((نعم دعوة ذي النون إذ هو في بطن الحوت: لا إله إلا أنت سبحانك إني كنت من الظالمين، فإنه لم يدع بها مسلم ربه في شيء قط إلا استجاب له)).

فضل يونس

قال الله تعالى: **{وإن يونس لمن المرسلين}** وذكره تعالى في جملة الأنبياء الكرام في سورتي النساء والأنعام، عليهم من الله أفضل الصلاة والسلام.

قال رسول الله صلى الله عليه وسلم:

((لا ينبغي لعبد أن يقول: أنا خير من يونس بن متى)).

ورواه البخاري من حديث سفيان الثوري به.
عن ابن عباس، أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال:
(لا ينبغي لأحد أن يقول: أنا عند الله خير من يونس بن متى)).